حبيب الراوي
استاذ اللغة العربية
كلية التربية - بغداد
١٩٦٧

ابـن القرّيّة

من الاقوال المأثورة ان اربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل وهم ((الشعبي وعبد الملـك والحجاج وابن القرّيّـة)) (١) .

والثلاثة الاوائل معروفون فالشعبي قد اشتهر بالفقه والورع وعبد الملك والحجاج كـان اولهما خليفة والثاني عاملا له على الكوفة ، ويبدو ان الاربعة قد عاشوا في عصر واحد هو العصر الاموي . وفي عهد عبد الملك على وجه الدقة .

اما ابن القرّية فقد كان شخصية مغمورة في مستهل حياته ، حيث كان اميا لا يحسـن القراءة والكتابة ولكنه اوتي من وفرة العقل وحدّة الذكاء الحظ الاوفر ، فكان خطيبا مصقعا ومتكلما مفوها لا يشق له غبار ، ولا يمسك عليه بلحن ، وفوق كل هذا كان له رأي وحكمة جعلـت الحجاج يعتمد عليه لا في المسائل العامة حسب ، بل وفي اموره الخاصة كما سنرى فيما بعد .

الشك في شخصية ابن القرّية :

قبل ان نتناول حياته واخباره لابد لنا ان نقف عند رواية اوردها ابو الفرج الاصبهاني في معرض الحديث عن اخبار مجنون بني عامر ، فهو بعد ان يسرد ما سمعه من اخباره واشعاره يذكر حديثا منسوبا الى عوانه (٢) مؤداه ان ((ثلاثة لم يكونوا قط ولا عرفوا ابن ابي الغمـر صاحب قصيدة الملاحم وابن القرية . ومجنون بني عامر (٣))) فهل كان ابن القرّية شخصية واقعية لعبت دورها على مسرح الاحداث ، ام كان من اولئك الاشخاص الذين صانهم خيال الـرواة والقصاص (٤) .

ولابد لنا من الاشارة الى ان الاصبهاني وحده قد انفرد بذكر هذه الرواية ولم يشر الى عوانة من هو ، ولكن الطبري المؤرخ المعروف بتحريه للحقائق يورد رواية منسوبة الى عوانـه والارجح انه عوانة الكلبي وهي تناقض ما اورده الاصبهاني ويؤدي هذه الرواية ((قال هشـام قال عوانة حين منع الحجاج من الكلام ابن القرية ، قال له ابن القرية : والله لو كنت انا وانت على السواء لكنا جميعا او لا يفتنا منيعا (٥) وهذا يعني ان عوانة هذا كان على بعض اخبار ابن القرية ، باعتبار انه شخصية تاريخية .

واذا علمنا ان الاصبهاني يعتمد نهجه على جمع الروايات التي يتوصل اليها ، وقد توخى الطرافة في بعض الاحيان ، لان كتابه ، وان كنا رأيناه يعتمد على الاسناد فيما اورده مـن معلومات ، ولكن نظرة واحدة الى ما اورده من اخبار مجنون بني عامر وما نسبه اليه من شعر ، مع انه كان شاكا في وجود مثل هذه الشخصية تكفي للتدليل على ذلك (٦) .

واذا علمنا ان المؤرخين يكاد ينعقد اجماعهم على وجود شخصية حقيقية هي شخصية ابـن القرية واسمه ايوب بن زيد (٧) وكنيته ابو سليمان (٨) وان مقتله على يدي الحجاج بعد حـوار دار بينهما سوف نذكره وذلك عام ٨٤ هـ (٩) ، مع اختلافات يسيرة في بعض التفاصيل ، ادركنا ان وجوده كان حقيقة لا وهما .

وهناك بعض الاختلافات حول شخصية (القرّية) التي ينتسب اليها ايوب ، فالبعض يقول انها امه [١٠] والبعض الآخر يقول ان جده كان ابنا للقرّية التي تزوجها مالك ابن عمرو ، وان كليبا جد العباس بن عبد المطلب من سلالتها فالعباس (عم النبي) يكون من اولاد القرّية بهذا الاعتبار ، والبعض الآخر يقول انها جدته [١١] .

وذكر ابن قتيبه [١٢] ان ابن القرّية هلالي اى من بني هلال بن ربيعة بن زيد بن مناة ولكن ابن خلكان يشير الى رواية مسندة الى ابن الكلبي [١٣] ان ابن القرّية من بني مالك بن عمرو ابن زيد بن مناة فما يجتمع هلال ومالك الا في زيد ، وهي اختلافات يسيرة لا تدفعنا الى الشك في شخصية الرجل ، كما ان هناك رواية اخرى لابن عبد ربه انه من سلالة عوف بن سعد الذى ينتسب الى ربيعة قبل شيبان [١٤] .

ولعل من الاسباب التي دفعت الى الشك في وجوده انه وقد اشتهر امره بين العامّة في العصر العباسي ، فمن المحتمل انه قد اضيف اليه ما لم يقل او يفعل ، وقد يكون سبب شهرته بين العامّة آنذاك مصرعه على يدى الحجاج والموقف البطولي الذى وقفه ازاءه ، ويقول الجاحظ في هذا الصدد ((... وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية في الشهرة ولا يرزق ذلك الذكر والتنويه بعض من هو اولى به ، الا ترى العامّة ابن القرّية عندها اشهر في الخطابة من سحبان وائل ، وعبد الله بن الحر اذكر في الفروسيّة عندهم من زهير بن ذؤيب وكذلك مذهبهم في هنترة بن شداد وتيبة بن الحارث بن شهاب ، وهم يضربون المثل بعمرو بن معد يكرب ولا يعرفون بسطام بن قيس)) [١٥] .

بعض اخباره :

تقتصر اخبار ابن القرّية التي اوردها المؤرخون عن علاقاته مع الحجاج وعامله حوشب ابن يزيد وعبد الرحمن بن الاشعث [١٦] وهي بمجموعها تؤكد حقيقة وجوده ومقتله صبرا على يدى الحجاج ، وهذه بعض تلك الاخبار :

١ ـ الخبر الذى يشير الى كيفية تعرّف الحجاج على ابن القرّية وكيفية خروجه عليه ، وهو انه كان قد اصابته السنة والفقر واشتد به العوز فقدم عين التمر وعلمها وال للحجاج كان يغدّى ويعشّي كل يوم ، وكان ابن القرية بين هؤلاء الذين يحضرون غداءه وعشاءه ، وقد لاحظ ان العامل لم يحضر طعام الغداء في احد الايام بسبب ورود كتاب عربي غريب من الحجاج لا يدرى ما هو ، فادرك ابن القرّية الموقف وعرض مساعدته للعامل الذى وافق ان يملي على كاتبه جوابا للحجاج ، وقد ادرك الحجاج ان هذا ليس من صنع عامله فطلب اليه ان يشخص اليه على جناح السرعة ذلك الذى صنع جواب كتابه ، فبعث به اليه وحين كلّمه اعجب بفصاحته وبلاغته ، واخذ يعتمد عليه في مهامّه ، من ذلك انه ارسله الى الخليفة الوليد [١٧] ، ولكن لم يذكر عن المهمة التي ارسله من اجلها ، ولا الحوار الذى دار بينه وبين الوليد ، بينما

يسجّل المؤرخون محاورات عدة جرت بينه وبين الحجاج ، ويذكرون اخبارا من مهمات خاصة بعثه بها الحجاج كالخطوبة او الطلاق من بعض ازواجه كما سوف نذكر .

٢ — ذكر الطبري ان ابن الاشعث كان يدخل على حوشب بن يزيد (عامل الحجاج على الكوفة) بعد انصرافه من دير الجماجم (وهي الواقعة التي جرت بين الحجاج وعبد الرحمن بن الاشعث حين خرج هذا على الطاعة في ولاية سجستان) فيقول حوشب : انظروا الى هذا الواقف معي ، وغدا او بعد غد يأتي كتاب من الامير (اي الحجاج) لا استطيع الا انفاذه ، فبينما هو واقف ذات يوم ، اذ اتاه كتاب من الحجاج يقول فيه ((اما بعد فانك صرت كهفا لمنافقي اهل العراق وماوى ، فاذا نظرت في كتابي هذا فابعث اليّ ابن القرّية مشدودة يداه الى عنقه مع ثقة من قبلك)) فلما قرأ حوشب الكتاب رمى به فقرأه وقال : سمعا وطاعة فبعث به الى الحجاج موثقا (١٨) ، ويمكن الاستنباط من رواية الطبري هذه ان عامل الحجاج قد استدرج ابن القرّية وقد يكون اعطاه الامان ان لا ضير عليه ، فلما قبض عليه ارسله الى الحجاج بناء على طلبه ، اذ من المستبعد ان يشترك ابن القرّية في معركة دير الجماجم الى جانب ابن الاشعث ثم يطمئن الى ملازمة مجلس احد عمال الحجاج المعروف بشدة بطشه وفتكه بمن يشتبه انهم خصومه ، فكيف بمن وقف مع عدوه في العلانية ، وحمل السيف ضده ؟ !

٣ — ويقول ابن خلكان ((لما خلع عبد الرحمن ... بن الاشعث ، الطاعة بسجستان ، وهي واقعة مشهورة ، بعثه الحجاج — اي ابن القرّية — اليه رسولا ، فلما دخل عليه ، قال : لتقومن خطيبا ، ولتخلعنّ عبد الملك ، ولتسبّنّ الحجاج او لاضربن عنقك ! فقال : ايها الامير انما انا رسول ، قال : هو ما اقول لك ، فقام وخطب وخلع عبد الملك وشتم الحجاج ، واقام هنالك ، فلما انصرف ابن الاشعث مهزوما كتب الحجاج الى عماله بالرّي واصفهان وما يليهما بأمرهم الا يمرّ بهم احد من قبل ابن الاشعث الا بعثوا به اسيرا اليه ، واخذ ابن القرّية فيمن اخذ (١٩) .

موقفه من الحجاج :

تشير الروايات الى ان الحجاج كان يعتمد على ابن القرّية في اموره العامّة والخاصة ، فقد ذكرنا انه اوفده الى عبد الملك في بعض مهامه ، وقيل انه اوفده الى ابن الاشعث ليقنعه الى العدول عما هم به ويعيده الى الطاعة للحكم الاموي ، ولكنه ابن الاشعث ارغمه ان يقف الى جانبه ضد الحكم الاموي .

ومن المهمات الخاصة التي انتدبه اليها خطبته هند بنت اسماء زوج الحجاج حيث طلب من ابن القرّية ان يخطبها والا يزيد على ثلاث كلمات فقال : آنتكم من عند من تعلمون ،

والامر يعنيكم ما تسألون افتكذبون ام ترد ون ؟ إ قالوا بل انكذنا وانعمنا ؛ فرجع ابن القرّية الى الحجاج فقال : اقرّ الله عينك وجمع شملك ؛ وانبت ريشك على الثبات ؛ والغنى حتى الممات . . . . . (٢٠) .

وحين اراد الحجاج ان يطلق هندا هذه استخدمه لهذه المهمة ؛ وطلب منه ان يطلقها بكلمتين ويمتعها بعشرة آلاف درهم فقال لها : ان الحجاج يقول لك : كنت فبنت ؛ وهذه عشرة آلاف متعة لك ؛ فقالت : كنا فما حمدنا ؛ وبنّا فما ندمنا ؛ وهذه العشرة آلاف لك بمشارطتك اياى بطلاقي (٢١) .

ومهما بلغ هذان الخبران من الصحة او الوضع ؛ فان اثباتهما او نفيهما لا يؤثر على حقيقة وجود ابن القرّية .

مقتلـــه :

تواترت الروايات ان مقتل ابن القرّية كان على يد الحجاج سنة ٨٤ هـ ؛ ومعظمهـا يشير الى المحاورة التالية التي جرت بين الاثنين :

الحجاج — ماذا اعددت لهذا الموقف ؟

ابن القرية — ثلاثة حروف ؛ كانهن ركب وقوف : دنيا وآخرة ومعروف .

الحجاج — اخرج عما انت فيه

ابن القرية — افعل إ اما الدنيا ؛ فمال حاضر يأكل منه البر والفاجر ؛ واما الآخرة فميزان عادل ؛ ومشهد ليس فيه باطل ؛ اما المعروف فان كان عليّ اعترفت وان كان لي اعترفت ثم اردف ذلك قائلا :

اصلح الله الامير اقلني عثرتي ؛ واسقني ريقي ؛ فانه ليس جواد الا له كبوة ؛ ولا شجاع الا له هبوة ؛ قال الحجاج — والله لارينك جهنم ؛ قال فارحمني فاني اجد حرّها . قال : قدّم يا حرس فاضرب عنقه ؛ فلما نظر اليه الحجاج يتشحط في دمه قال : لوكنا تركنا ابن القرّية حتى نسمع من كلامه (٢٢) .

وهذا يعني ان الحجاج قد ندم على قتله (٢٣) .

نبذ من اقواله :

سارت كثير من اقوال ابن القرّية بين الناس مسير الامثال ؛ ولعل احتواءها على الحكم والآراء السديدة ؛ وما فيها من ازدواج او سجع قد كانت هذه كلها عوامل ساعدت على ذيوعها وانتشارها هذا فوق ما اشتهر به الرجل في مجال الفصاحة والخطابة ؛ ولعل الطريقة التي انتهت حياته بها ؛ ساعدت على شهرته انتشار اقواله ؛ حتى اخذ فريق من الادباء

يقتبس منها ، ومن ذلك ما رواه الجاحظ ان الخرعي وصف شعر نفسه في مديح ابن دلف ، حيث يقول :

له كلم فيك معقولـة اذا ما القلوب كركب وقـوف

ويظنون ان الخرعي انما احتذى في هذا البيت على كلام ايوب بن القرّية ، حين قال له بعض السلاطين : ما اعددت لهذا الموقف ، قال ثلاثة حروف ، كأنهن ركب وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف (٢٤) ، ومعلوم لدينا — كما تقدم — ان هذه المحاورة كانت مع الحجاج .

وفي (مجاني الادب) وصف للمزاح على لسانه اذ يقول ((المزاح اوله فرح وآخره ترح والمزاح نقائض السفهاء كالشعر نقائض الشعراء ، والمزاح يوغر صدر الصديق ، وينفر الرفيق (٢٥) .

وقال في اصناف الناس ((الناس ثلاثة عاقل واحمق وفاجر ، اما العاقل فان الدين شريعته والحلم طبيعته والرأي الحسن سجيته ، ان نطق اصاب ، وان كلم اجاب ، وان سمع العلم وعى وان سمع الفقه روى . اما الاحمق فان تكلم على عجل ، وان حدّث ذهل وان حمل على القبيح حمل . واما الفاجر فان استأمنته خانك ، وان صاحبته شانك ، وان استكتم لم يكتم ، وان علّم لم يعلّم ، وان حدث لم يصدق ، وان فقه لم يفقه (٢٦) .

ومن الاسجاع المنسوبة اليه ، قوله وقد كان دعي للكلام او احتبس عليه القول ((قد طال السهر ، وسقط القمر واشتد المطر فماذا ينتظر ؟)) فاجابه فتى من بني عبد القيس ((قد طال الارق ، وسقط الشفق وكثر اللتق فلينطق من نطق)) (٢٧) .

ويذكر ابن خلكان محاورة تبلغ ثلاث صفحات من كتابه ، بين الحجاج وابن القرّية عن صفات الناس والارضين ، نجتزئ منها بما يلي ، ويمكن الرجوع اليها كاملة في مظانها (٢٨)

الحجاج — خبرني عما اسألك عنه .

ابن القرية — سلني عما شئت .

الحجاج — فاخبرني عن اهل العراق

ابن القرية — اعلم الناس بحق وباطل

قال — فاهل الحجاز ، قال — اسرع الناس الى فتنه واعجزهم فيها

قال — فاهل الشام ، قال — اطوع الناس لخلفائهم

قال — فاهل مصر ، قال — عبيد لمن غلب

قال — فاهل البحرين ، قال — سنبط استحوبوا

قال — فاهل عمان ، قال — عرب استنبطوا

قال — فاهل الموصل ، قال — اشجع فرسان واقتل للاقران

قال — فاهل اليمن ، قال — اهل سمع وطاعة ولزوم للجماعة

قال — فاهل اليمامة ، قال — اهل جفاء واختلاف للاهواء

قال — فاهل فارس ؛ قال — اهل باس شديد وشرّعتيد ؛ وريف كبير وقرى يسير
قال — اخبرني عن العرب ؛ قال — سلني
قال — قريش ؛ قال — اعظمها احلاما ؛ واكرمها مقاما
قال — فبنو عامر ؛ قال — اطولها رماحا ؛ واكرمها صباحا
قال — فبنو سليم ؛ قال — اعظمها دبالس ؛ واكرمها محابس ..... الخ

وسأله بعض العلماء عن حدّ الدهاء ؛ فقال : هو تجرع الغصة وتوقع الفرصة
ومن كلامه في صفة المعن — هو التفضل من غير داء والتثاؤب من غير ريبة ؛ والاكباب في الارض من غير علة (٢٩)

وروى ان الحجاج بن يوسف الثقفي ؛ سأل ابن القرية عن صفات الجواد ؛ فقال : نعم اصلح الله الامير الطويل الثلاث ؛ القصير الثلاث ؛ الرحب الثلاث ؛ الصافي الثلاث ؛ قال : صفهن وبيّن لفظك ؛ فقال : اما الطويل الثلاث ؛ فالاذن والعنق والذراع ؛ واما القصير الثلاث ؛ فالعسيب والساق والظهر ؛ واما الرحب الثلاث ؛ فالجوف والمنخر والجبهة ؛ واما الصافي الثلاث ؛ فالاديم والعين والحافر (٣٠) .

وبعد كل هذا نستطيع ان نرجح ترجيحا اقرب ما يكون الى اليقين ان ابن القرّية شخصية واقعية وليس من صنع الخيال ؛ بالرغم مما اضيف اليه من اقوال او افعال قد لا تربطها به رابطة او تقوم معها علاقة .

(١) اخبار الزجاجي (م) لوحة ٣٠ نقلا عن القرآن الكريم واثره في الدراسات النقدية تأليف عبد العال مكرم ص ٥٨ .

(٢) هو عوانة بن الكلبي كما يقول بروكلمان ١/٢٠٠

(٣) نسب بروكلمان هذه الرواية الى ابن الكلبي لما ورد في الهامش (٢) والصحيح ان هذا القول اورده صاحب الاغاني ٢/٩

(٤) نشير الى ما كتبه الدكتور طه حسين في ((الادب الجاهلي)) الذي طبع للمرة الاولى تحت عنوان ((في الشعر الجاهلي)) وما اثاره من شكوك حول روايات بن اسحق في تاريخه وهو من اقدم المؤرخين ، ويقول بن سلام الجمحي في طبقات الشعراء ص ٤١ بأن ابن اسحق قد حمل كل غناء من الشعر

(٥) الطبري : حوادث سنة ٨٤ في معرض الحديث عن مقتل ابن القرية

(٦) انظر الصفحات من ٦ — ١٠ من الجزء الثاني من الاغاني ، والروايات التي فيها تدل على ان المجنون كان من صنع الخيال ومنها ان ايوب بن عباية حدّثه من سأل بني عامر بطنا بطنا عن المجنون فما وجد فيهم احدا يعرفه ٢/٩ ، وقال الجاحظ ((ما ترك الناس شعرا مجهول القائل في ليلى الا نسبوه الى المجنون)) ٢/٨ الاغاني ، وانظر ما كتبه الدكتور زكي مبارك تحت عنوان ((روايات الاغاني)) في مجلة المقتطف المصرية عدد يوليو سنة ١٩٣٠ وقد اتهمه بانه يعطي صورة غير صحيحة عن العصور التي يتحدث عنهـــا .

(٧) البيان والتبيين ١/١١٢ ، والنجوم الزاهرة ١/٢٠٧ والمعارف ٤٠٤

(٨) ابن خلكان ١/٢٢٧ ، والمعارف ص ٤٠٤ ، والبيان والتبيين ١/٢٠

(٩) وفيات الاعيان ١/٢٢٧ ، ابن الاثير حوادث سنة ٨٤ ، الطبري حوادث سنة ٨٤ ، ابن تغرى بردى حوادث سنة ٨٤ ، وينفرد المسعودي في القول ان مقتل ابن القرية كان سنة ٨٢ انظر المروج ٣/٨٠ ، ولعل الذي اوقعه في هذا الالتباس ان خروج ابن الاشعث على الحكم الاموي كان في تلك السنة .

(١٠) المعارف لابن قتيبة ص ٥١٨ في باب ((المنسوبين الى غير آبائهم وعشائرهم)) وانظر ص ٤٠٤ من هذا الكتاب .

(١١) انظر ابن خلكان الترجمة ٨٤ والفهرست لابن النديم ص ١٧٠

(١٢) المعارف ٤٠٤

(١٣) ابن خلكان ١/٢٢٧ والذهبي ٣/٢٤٣

(١٤) العقد الفريد ٣/٢٧٦

(١٥) البيان والتبيين ١/٢٠

(١٦) الطبري/حوادث سنة ٨٤ ، تاج العروس وزهر الآداب ٤/٤٩ ، والنجوم الزاهرة ١/٢٠٧

(١٧) وفيات الاعيان ١/٢٢٧ والذهبي ٣/٢٤٣

(١٨) الطبري / حوادث سنة ٨٤
(١٩) وفيات الاعيان ١/٢٢٨ ؛ الذهبي ٣/٢٤٣
(٢٠) عيون الاخبار ٣/٦٩
(٢١) عيون الاخبار ٢/٢٠٩
(٢٢) الطبري / حوادث ٨٤
(٢٣) المصدر نفسه ؛ وانظر زهر الآداب ٤/٤٩
(٢٤) البيان والتبيين ١/١١٢
(٢٥) مباني الادب ٣/١٢٠
(٢٦) مروج الذهب ٣/٨٠
(٢٧) البيان والتبيين ١/٢٩٨
(٢٨) وفيات الاعيان ١/٢٨ — ١٣٠
(٢٩) المصدر نفسه
(٣٠) بلوغ الارب في احوال العرب ٢/٨٤ .